الشيخ التوهامي حساني شريف ونشاطه التربوي والوطني بمنطقة الحضنة الشرقية

الدكتور/ محمد السعيد قاصري
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مقدمـــــة:

في يوم الجمعة 31 جانفي 2014 م وبعد أدائنا لصلاة الجمعة في مسجد القرية مسجد الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ذهبت إلى زيارة المقبرة الظهراوية بالقرية حيث قبر والدي العزيز رحمه الله، للترحم عليه وقراءة سورة الفاتحة وما تيسر من القرآن الكريم على شفير قبره، وعلى اثر ذلك ذهبت في زيارة موعدية في حدود الساعة 14.00 زوالا إلى بيت السيد حساني الشريف الهاشمي[1]؛ أين وجدت نجله ديدوش في استقبالنا.

وبعد دقائق معدودات دخل والده؛ واستقبلنا بحفاوة كبيرة؛ تجاذبنا خلالها أطراف الحديث وموضوع الزيارة، ثم عرضت عليه أمرين: الأمر الأول: التسجيل معه مباشرة صوتا وصورة بآلة التسجيل والكلام سيكون مفتوح له من خلال ما يعرفه عن زاوية الشيخ التوهامي، الأمر الثاني: إجراء حوار مباشر، وغير مسجل عن طريق طرح أسئلة ثم الإجابة عنها؛ فوافق على هذه الفكرة، ومن هنا جائت فكرة الكتابة عن الشيخ التوهامي حساني شريف .

1 - ينظر الملحق رقم 2.

التعريف بالشيخ التوهامي حساني شريف:

هو الشيخ الجليل التوهامي بن الشيخ مُحَمَّد الطاهر حساني الشريف الرحايي[1]، ولد في حدود سنة 1852، ينحدر من منطقة الدار البيضاء أو حامة بوطالب، زاول تعليمه في زاوية سيدي الحواس بعين ولمان بسطيف حاليا؛ حيث تحصل على الإجازة منها في وقت مبكر، ظل استمراره وعطاؤه للزاوية التي أسسها سنة 1885 وإلى غاية وفاته سنة 1936، فخلفه نجله سي الخثير على رأس الزاوية، ومن خلال مقابلتنا مع السيد طالب حمود بن بوبكر، من مواليد 19 نوفمبر 1927، وأحد التلاميذ الذين درسوا بالزاوية، أنه كان يعرف ويسمع عن الشيخ التوهامي بعض الكرامات، حيث يقول: إنه في سنة 1917، [الظاهر أنه في سنة 1916خلال ثورة الأوراس]، وقع اشتباك في الحضنة الشرقية بين الجيش الفرنسي وعرش أولاد سحنون، عندما رفضوا التجنيد الإجباري وألحقوا خسائر في صفوف الجيش الفرنسي، خصوصا الخيالة منهم، وعندما أرادت فرنسا معاقبتهم بقوة وبعنف لا مثيل له، تدخل الشيخ لحمايتهم وقدم ضماناته لفرنسا بعدم تكرار هذه الأحداث.

وعلى اثر ذلك تم استدعاؤه إلى الجزائر العاصمة، ويقول محدثنا في هذا الشأن، وفي محاولة منه للربط بين مُحَمَّد بوخنتاش البراكتي صاحب ثورة 1860 وبالشيخ التوهامي، حيث ذكر لنا بأن الشيخ التوهامي خاله مُحَمَّد بوخنتاش الذي ينتسب للرحابات، وهو القائد الذي دوّخ فرنسا وهدد وجودها بشكل كبير في الحضنة الشرقية، ودخل في مواجهات مسلحة مع الجيش الفرنسي في معركة خنق أم حمام التي راح ضحيتها حوالي 800 شهيد، ولا تزال تخلد في الذاكرة الشعبية.

لقد كان الجانب الفرنسي يرى في الشيخ التوهامي شخصان: عندما يكون قادما باتجاههم يرون فيه شخص مُحَمَّد بوخنتاش وعندما يكون مغادرا لهم يرون فيه شخص الشيخ التوهامي!!، وبخصوص زيارته للجزائر العاصمة يقول محدثنا: حاولوا اختباره فوضعوا له خفية كأس مملوء بالسم أو بالزهج -كلمة عامية حسب محدثنا-، وعندما قدموه له تحول هذا السم إلى عسل فشربه الشيخ دون أن يلحق به أي ضرر، وهو ما زاد من هيبة وقيمة الشيخ في نظر الفرنسيين، ويذكر بهذا الخصوص أيضا أنه عندما وضع الكأس

1 - لكن من خلال رواية الأستاذ لمين مُحَمَّد، الذي كان يشغل منصب مدير المدرسة الابتدائية قاصري عيسى بالمرابعة، وهو الآن متقاعد، وينحدر من عائلة متدينة ومجاهدة وحافظة لكتاب الله تعالى، فإن أول زاوية تم تأسيسها بالقرية وبالضبط في منطقة جر أولاد سيدي السعيد كانت للشيخ عيسى لمين، في وقت سابق بكثير لزاوية الشيخ التوهامي، وللعلم أن زاوية الشيخ عيسى لا تزال بعض بقاياها تشهد على ذلك، وهي كانت مخصصة بالدرجة الأولى لتعليم القرآن الكريم، وللعلم أن هذه العائلة أي عائلة أولاد سيدي السعيد هم كلهم من حفظة القرآن الكريم، ولهم امتداد وعلاقات مع الزاوية الرحمانية في منطقة القبائل، كما لهم ممتلكات عقارية بذات المكان، مما ولد لدينا يقينا بأنه فعلا كانت للشيخ عيسى لمين زاوية بالمكان المذكور سلفا.

أمامه طلب منهم الإذن بالخروج الذي استمر لحوالي 05 دقائق، فحل طائر على كتفه وأخبره بالخديعة، وبغض النظر عن صحة هذه الرواية من عدمها، التي تندرج ضمن الهالة التي ضربها الناس حول بعض الشيوخ والمرابطين، فالشيخ التوهامي كان يحظى بمكانة قوية ومتميزة جدا لدى السكان، وليس بالضرورة أن تكون هذه المكانة وليدة لهذه الرواية أو غيرها، بقدر ما كانت وليدة للوشائج والروابط الاجتماعية ولدور الشيخ التوهامي الإصلاحي والثقافي بالمنطقة.

وفي معرض بحثنا على الشيخ التوهامي وجدنا في إحدى القصاصات الورقية التي عثرنا عليها في إحدى الجرائد المحلية لولاية سطيف، "قالو في سطيف " الصادرة في 01 أفريل 2006، ما يلي: الشيخ التهامي بن سيدي رحاب، ولي صالح عالم في الفقه واللغة، وصاحب مدرسة جهوية في مقرة لتعليم القرآن الكريم، لديه مأثورات عديدة وحكم لا تعد ولا تحصى، وأشهرها حكايات وروايات خاصة بثوار من عرش ريغة بعين ولمان[1].

تأسيس زاوية الشيخ التوهامي:

تأسست هذه الزاوية على يد الشيخ التوهامي في حدود سنة 1885 بقرية المرابعة بمقرة، وهي تنتمي للطريقة الصوفية الرحمانية، وتعد الزاوية الأولى التي تم تأسيسها بالقرية[2]، أما بالنسبة لمساحة الزاوية وشكلها فهي عبارة عن بناية واسعة ومتواضعة من الحجارة ومغطاة بالآجر الأحمر، وهي تضم مسجدا للصلاة، وقاعة لتدريس الفقه وعلوم اللغة كالنحو والصرف، وقاعة لتعليم القرآن الكريم، وقاعة للمبيت، هذا إلى جانب قاعة كبيرة للطبخ وأخرى لتناول الطعام؛ بالإضافة إلى دار الشيخ التي تحتوي على ما يسمى بدار الضياف حيث كان يستقبل بها الضيوف والزوار من خاصة القوم، وبجانب الزاوية وغير بعيد عنها يقع إسطبل الحيوانات،

1 - طالب، حمود بن بوبكر: زاوية الشيخ التوهامي، مقابلة، ذكر على مسامعنا قصيدة شعرية بخصوص وفاة الشيخ التوهامي، وهي مسجلة عندنا، ومن بين الانطباع الذي سجله على هذه الجنازة التي كانت ضخمة حيث قدم الناس من كل حدب وصوب لتشييع شيخ الزاوية، خصوصا السادة والشيوخ والعلماء الأجلاء الذين ينتمون في عمومهم للطريقة الصوفية الرحمانية. وبخصوص القصيدة التي بحوزتنا سنعمل على نشرها في وقت لاحق في إطار العمل التاريخي الذي نحن بصدد القيام به حول تاريخ المنطقة، رفقة بعض الزملاء وعلى رأسهم الدكتور مقدر نور الدين.

2 - سوء التفاهم الذي وقع مثلا بين عرش أولاد عمر الذي ينتمي إليه المجاهد خيري الخير ، وبين الشاوية حول طبيعة العمليات العسكرية التي يجب أن تكون بالمنطقة الرابعة التابعة للولاية الأولى، والعمليات الفدائية التي كانت تتم بها، ويتعرض من خلالها السكان إلى التصفية من طرف العدو، وتدمير مثلا بعض الجسور، معنى ذلك أن سوء التفاهم كان يحصل عادة في تسييق بعض النشاطات العسكرية عن بعضها البعض، وهنا احتدم النقاش وكاد أن يتحول إلى مواجهة بين عسكري المنطقة الرابعة الذين ينتمون إلى المسيلة الموالين لرأي خيري الخير، وعسكري الناحية الرابعة الموالين لقادة الأورس.

الذي يضم مجموعة من الخيول والأحصنة والأبقار والأغنام، يقل عددها ويكثر حسب ظروف الزاوية، وكل هذه الحيوانات كانت ترعى بالقرب من الزاوية في ما كان يُسمى بالمرجة أو مرجة بيت الشيخ.

كما أن للزاوية ممتلكات عقارية كبيرة عبارة عن أراضي خصبة وصالحة للزراعة خصوصا القمح والشعير، وهي التي يتم زرعها وحصدها عن طريق عملية التويزة، ومما ساهم في عامل استقرار الزاوية نبع الماء المتمثل في وادي مقرة الذي تشرف عليه الزاوية، وكان يتميز بجريانه الدائم، استغله شيخ الزاوية في بناء سد ضخم لسقي ما يمكن سقيه، كما تمكن من بناء رحى يدوية كبيرة لطحن الحبوب، لا تزال تعرف برحى بيت الشيخ.

لم تبق الزاوية في مقرها الأصلي الذي بنيت فيه حيث قام نجله سي الخثير أو الخضير بنقل مقر الزاوية الذي كان يقع على ربوة تطل على مساحة جغرافية شاسعة، إلى مكان غير بعيد عنه، وربما هذا لأسباب أمنية، كونها كانت في وضع مكشوف، ولا يزال مقر الزاوية الجديد شاهد على مساحتها وموقعها المُتميز بين الأشجار والبساتين التي كان تحفها من كل جهة.

أما بخصوص المعلمين الذين درَّسوا بالزاوية في عهد الشيخ التوهامي فهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ الحسين اليعلاوي (نسبة إلى بني يعلي)، وبعض الشيوخ المُنتسبين للطريقة الرحمانية بفروعها بكل من طولقة بسكرة، وزاوية الهامل ببوسعادة، وزاوية سي الحواس بعين والمان بسطيف حاليا.

أما نظام التدريس فهو يتم كالآتي: بعد صلاة الصبح مباشرة التي تتم في مسجد أو مُصلى الزاوية من صلاة الصبح أو بالأحرى من بزوغ الفجر إلى غاية الساعة التاسعة صباحا، وهذا ليتسنى لبعض التلاميذ الذين يقيمون خارج الزاوية من الالتحاق بزملائهم في وضع يسمح لهم بذلك حيث وعرة الطريق والمسالك الصعبة، وهي الفترة المخصصة لتحفيظ القرآن الكريم الذي يتم بطريقة تقليدية عن طريق الألواح الخشبية وقلم القصب وما يعرف بالدواية التي تحتوي على الحبر المُعد سلفا من صوف الأغنام المُحترق، وعادة ما يتم في هذه الفترة عرض الجزء المكتوب في اليوم السابق، ثم القيام بمحوه، عن طريق الماء ومادة الصلصال، ليتم كتابة جزء آخر على نفس اللوحة بعدما يتم تعريضها لأشعة الشمس أو الهواء لكي تجف، وتصبح صالحة للكتابة.

بينما تبدأ المرحلة الثانية من ما بعد صلاة الظهر إلى غاية صلاة العصر، حيث يتم فيها تدريس مختلف العلوم والمعارف الفقهية واللغوية، أما ما بعد صلاة العصر وإلى غاية صلاة المغرب فهو وقت مخصص لقراءة القرآن الكريم واسترجاعه، أما الفترة الممتدة ما بين صلاة المغرب والعشاء فهي مخصصة للتدريس أيضا، وإن كانت عادة تكون مختصرة ومفيدة يقوم بها الشيخ نفسه أو من ينوب عنه. وقد تكون في غالب الأحيان عبارة عن حلقة من حلقات الذكر.

وفيما تعلق بالعائدات أو المداخيل الأساسية للزاوية، فهي عادة من مال الشيخ الخاص ومن عائدات الأراضي الفلاحية التي تمتلكها الزاوية، ومن زيارة الأتباع والمريدين الذين كانوا عادة يمونون أنفسم بأنفسهم في فصل الصيف حيث تعطى لهم شبه عطلة، لكي يتفرغوا لممارسة مختلف النشاطات الفلاحية الصيفية، خصوصا الحصاد، ليعودوا في فصل الخريف بما تيسر لهم من مال يعيلوا به أنفسهم أثناء مرحلة الدراسة، وللعلم أن جل المتمدرسين كانوا تقريبا من منطقة الحضنة الشرقية، كما سترد الإشارة إليهم لاحقا.

إلى جانب الدور الثقافي والتربوي الذي كانت تقوم به الزاوية وشيخها الجليل، فلقد كان لهذا الأخير أدوار أخرى ذات بعد اجتماعي وإصلاحي، كإصلاح ذات البين بين المتخاصمين سواء كانوا فرادى أو جماعات أو حتى عروش المنطقة، هذا إلى جانب تحريره لكل العقود الاجتماعية كعقود الزواج، الطلاق، البيع والشراء، وإطعام الفقراء والمساكين وعابري السبيل، خصوصا في ظل الموقع الجغرافي الذي تحتله الزاوية، التي كانت عادة يُعبر عنها بالبيت الكبيرة، أو بيت الشيخ ولم يكن يضاهيها أي بيت آخر بالمنطقة.

ظل استمرار الزاوية وعطاء الشيخ التوهامي ردحا من الزمن إلى غاية تاريخ وفاته سنة 1936م[1]، فخلفه ابنه سي الخثير، أو الخضير الذي حافظ على استمرار نشاط الزاوية بشكل لا بأس به فعلى الصعيد الثقافي يكون نجله قد حافظ على مسار الزاوية في نشر العلم وتعليم القرآن الكريم، بشكل موسع، ومن بين الذين قاموا بهذه المهمة النبيلة بالزاوية: حفاف سعيد من أولاد عدي لقبالة، ووسام المداني من عين ولمان، فهذين العالمين تتلمذ عليهما نجله سي الهاشمي الذي أجرينا معه هذه المقابلة، بالإضافة إلى المُدرس: مطبوع من لعرايب بسلمان أولاد دراج حاليا (لا يزال على قيد الحياة).

ويذكر لنا مجموعة من التلاميذ تتلمذوا معه بالزاوية، من بينهم: جلالي النوي (من مقرة وهو لا يزال على قيد الحياة)؛ بوعزيز مطبوع (من أولاد عدي أو ما يسمى بالعوايز)، ومن أولاد قسمية التابعة حاليا لأولاد عدي كل من : ذوادي مُحَمَّد وشقيقه الخثير، وابن عمهما عبد الحميد الذي استشهد أثناء الثورة، وعبد الحفيظ مطبوع (ربما استشهد هو الآخر) وعطوي أحمد، وسي عيسى، وزيتوني الذوادي (شيخ كبير جدا لا يزال على قيد الحياة أصله من المعاضيد ويسكن بأولاد عدي)....الخ.

كانت هناك مجموعة كبيرة من تلاميذ أو قدادشة مقرة يدرسون بالزاوية، ومن بينهم: سي العلمي العربي بن عزيز، الذي ينتسب إلى أولاد عطية بن حامد، وبوترعه الدراجي، وبوترعه اعمر (لا يزال على قيد الحياة)، وعيشوش عبد الحفيظ (لا يزال على قيد الحياة). وبن عطية بوعقلين (من عرش القشايش).

1 - سيكون لنا حديث عن هذا المركز، وعن غيره من المراكز، كمركز عبد الله بن السبعيني، مركز بولحية، مركز لقطاطشة...الخ في البحث الذي نحن بصدد تخريجه دائما رفقة الدكتور مقدر نور الدين، حول تطور الثورة التحريرية بالناحية الرابعة من 1955-1962، وردود الفعل تجاهها من خلال سياسة المعتقلات ومراكز التعذيب، هذه المركز التي انتشرت بشكل كبير جدا بالمنطقة، ولعله من بينها مركزي برهوم ومقرة.

أما من برهوم فنجد كل من: هذلي محمّد (توفي رحمه الله)، نجاعي العمري، دري السعيد (لا يزال على قيد الحياة)، ومن عين الخضراء: شريك عثمان (لا يزال على قيد الحياة)، وشريك ساعد (توفي رحمه الله). ومن سكان قرية المرابعة حيث مقر الزاوية نجد كل: باكري السعيد الذي حفظ القرآن الكريم بها، وسلامي العربي بن ساعد، وخيري رابح بن عمار بن مرزوق، [حسب محدثنا إما أنه فدائي أو كان مسئول لجنة خلال الثورة التحريرية]، طالب حمود بن بوبكر، لمين المسعود المعروف على مستوى القرية بالطالب سي المسعود...الخ، ولقد كان هناك مجموعة معتبرة من التلاميذ خارج إقليم منطقة الحضنة الشرقية، وبالضبط من الرصفة ومن بوطالب ومن الدار البيضاء، ومن أولاد تبان...الخ. وعلى العموم فإن عدد التلاميذ حسب محدثنا كان يقدر عددهم بالزاوية ما بين 35-44 تلميذا، بما فيهم أبناء سي الخثير، وعلى رأسهم محدثنا سي الهاشمي، وفي رواية لطالب حمود بن بوبكر فإن عددهم كان سنة 1914 حوالي 50 تلميذا، هذا على المستوى الثقافي.

أما على المستوى الاجتماعي فلقد استمر سي الخثير على خط والده في تقديم الطعام والمبيت لعابري السبيل، وكسوتهم وحل كثير من المنازعات والقضايا، هذا إلى جانب أن الزاوية كانت محجا لسكان القرية لإحياء المناسبات الدينية، كعيدي الفطر والأضحى، وإقامة صلاة التراويح في شهر رمضان، وإن كان سي الخثير حافظ على نشاط الزاوية فإنه لم يكن بالمستوى الذي كانت عليه في عهد والده، وهذا بسبب الظروف التي كانت مُخيمة على المنطقة ونواحيها في ظل الحرب العالمية الثانية وفي ظل الجفاف والقحط والمسغبة التي مست المنطقة بل الجزائر ككل في موفى أربعينات القرن الماضي، خصوصا فيما تعلق بمجازر 08 ماي 1945 وتشديد القبضة الفرنسية على الجزائريين، وعرقلة كثير من النشاطات الثقافية والعلمية.

أما بخصوص موقع الزاوية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، فيذكر لنا محدثنا بأن الزاوية قد احتضنت مجموعة معتبرة من مناضلي الحركة الوطنية، كالشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، الشيخ أبو اليقظان، الشيخ محمّد خير الدين، الشيخ العربي التبسي، الشيخ الطيب العقبي، ويقول محدثنا دائما: كنت صغيرا واجتمع مع والدي في غرفة الضيوف أين كان يتم تقديمي لهم، فكنت أحضر مجلسه مع كثير من الوجوه الغريبة عن قريتنا، فكان الشيخ أبي والده يجتمع بهم ولكن لم نكن نعلم نواياهم ولا الهدف من زياراتهم المتكررة؛ التي كانت تتم عادة على ظهور الخيول والأحصنة، كما كان يعقد لهم بين الحين والآخر اجتماع شبه محرجاني ويخطب فيهم، وعلى الرغم من هذه المكانة التي عرفتها الزاوية، ودورها في إقليم منطقة الحضنة الشرقية فهي لم تظفر بذكر لها في الموسوعة التي أعدها أبو القاسم سعد الله الموسومة بتاريخ الجزائر الثقافي، كما لم يذكر اسم مدينة مقرة ولم يشير لها في موسوعته لا من قريب ولا من بعيد.

نشاط الزاوية خلال الثورة التحريرية:

لم تتأخر زاوية الشيخ التوهامي في احتضان الثورة التحريرية، ومن بين أول المبادرات التي تمت بالزاوية هي احتضانها لتأسيس اللجنة الخماسية للثورة بعرش مقرة، ومن بين المؤسسين لهذه اللجنة بالزاوية في سنة 1955:

1. حساني الشريف الخثير رئيسا.-شالي النوي.-عيشوش مُحَمَّد.-بن دايخة إسماعيل.-بيبي الشريف.

ومن بين الأدوار التي قامت بها الزاوية بعد تشكيل هذه اللجنة: جمع الاشتراكات لصالح الثورة، مُستغلة في ذلك هيبتها الدينية وموقعها الاجتماعي، كما كانت الزاوية مجال استقطاب العديد من رجالات وقادة الثورة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أنه من بين الذين لَبَسُوا (كلمة عامية بمعنى تجندوا) مع الثورة انطلاقا من الزاوية والتحقوا بالثورة: صالحي عبد الله الذي لا يزال على قيد الحياة (مقيم بالجزائر العاصمة)، وخيري الخير، هذا الأخير الذي لعب دور كبير في الثورة بعرش مقرة، لكن الخلافات الطفيفة بين قادة الثورة التي كانت تخيم على المنطقة[1] والتي عادت ما كانت تُتبنى من طرف الأعراش، لم تسمح له بالبقاء في مقرة وضواحيها حيث انتقل إلى تونس.

كما شكلت الزاوية مركزا للتموين والعبور وجمع الأخبار عن العدو (الاستعلام)، وكانت كل هذه النشاطات من مال الشيخ الخاص حسب محدثنا، أما بخصوص عدد الجنود الذين كانت تستقبلهم الزاوية فتراوح عددهم ما بين:80-95 تارة وما بين 40-50 تارة أخرى، ومن بين القادة الذين احتضنتهم الزاوية: حيحي المكي (تجند من الزاوية)، عبد المجيد دباش (يوطنا) من سحاري بيطام، وبن النوي صالح (بريكة)، والباشا قويدر من بريكة، وعزيل عبد القادر.

لقد سجل عزيل عبد القادر حضوره بشكل كبير في محيط الزاوية، كما كان حاضرا في الخلاف الذي تحدثنا عنه سابقا، والذي ناصر من خلاله فكرة المجاهد خيري الخير، وخيري مُحَمَّد الطيب، ومن بين ما قام به عزيل عبد القادر محاصرته لمجموعة من المجاهدين المنحدرين من الشاوية بالزاوية وكادت أن تحدث معركة بين الطرفين لولا تدخل الشيخ وحنكته ومراعاة أيضا لحرمة الزاوية؛ لكن هذا لم يمنع شيخ الزاوية وبالتعاون مع قادة الثورة بالمنطقة من حلحلت المشكل، حيث كانت خطبة الشيخ مؤثرة واحتوت سوء التفاهم الحاصل، لكن هذا لم يمنع قيادة الثورة من توجيه نشاط المجاهد خيري الخير نحو تونس فيما بعد، ولم تُسجل في حدود علمنا أي خصومات من هذا النوع طيلة الثورة بالناحية الرابعة.

1 - لقد أفادنا محدثنا باسم هذا الشخص ولكن ألح علينا عدم ذكر اسمه من باب الأمانة العلمية.

لم تكتف الزاوية بالتجنيد والإطعام وإلقاء الخطب والمواعظ على المجاهدين الذين كانوا يمرون على الزاوية، بل كانت تقوم أيضا بدور الموزع للألبسة العسكرية على المجاهدين الجدد، الذي يلتحقون بالثورة من الزاوية، وربما هذا الالتحاق من الزاوية مباشرة والذي لم نسأل من خلاله محدثنا قد يعود إلى قدسيتها وبركة الشيخ التوهامي التي كانت منتشرة بشكل كبير في الناحية، ومن بين ما حدثنا به سي الهاشمي، أنه في يوم من الأيام تم تفريغ سيارة جاء بها المدعو بوشنافة مبارك بن قلة، سيارة مملوءة بالكتان القطيفة المخصص لخياطة ملابس جيش التحرير، وعلى اثر ذلك قام الشيخ سي الخثير وحسب محدثنا دائما بتعيين كل من: حيطاش الجودي، بأكري موسى، وصالح بن الكيف للقيام بنقل هذه الشُحنة من الكتان نحو مركز جغبال لجيش التحرير [1].

لكن العدو الفرنسي وبفعل عيونه المنتشرة في عين المكان تكون قد تفطنت لهذه الشُحنة التي أشرفت الزاوية على تفريغها ونقلها إلى مركز جغبال سنة 1958، فقام العدو الفرنسي في اليوم الموالي مباشرة بمحاصرة الزاوية وتفتيشها، لكنهم لم يجدوا ما يُوحي بالدور التمويني للزاوية، والسبب في ذلك يعود إلى عمليات إخفاء كل الوسائل والأدوات ومواد التموين، وإبعاد الشكوك والظنون حول نشاط الزاوية.

ولعل الشيء الوحيد والمُتميز الذي أخذه العدو من الشيخ سي الخثير هو مذياعه الخاص، الذي كان دائما يلتقط من خلاله نشاط الثورة، في الداخل والخارج، ويقف من خلاله على تطوراتها الداخلية والخارجية، وحسب محدثنا فإنهم طلبوا من الشيخ أن يلتحق بهم في اليوم الموالي إلى مركز برهوم، لاسترجاع المذياع، وهي حيلة ووسيلة يستدرج بها العدو الفرنسي أتباعه، ليتم الإجهاض عليهم ورميهم في السجن أو ربما قتلهم بطريقة غير مباشرة، لكن الشيخ لم يذهب في اليوم الموالي لاسترجاع مذياعه كونه كان مُعطلا في تلك الأثناء.

لم يتوقف العدو الفرنسي عند هذه العملية الاستطلاعية والتفتيشية التي استهدفت الزاوية في اليوم الأول، وفي كون الشيخ سي الخثير لم يلتحق بمركز العدو، كما طلب منه سابقا، حيث سرعان ما عاد مرة أخرى أفراد من الجيش الفرنسي في عربتهم العسكرية، وقاموا بإلقاء القبض على الشيخ، ويذكر محدثنا أن هذه العملية تمت بوشاية أحد المواطنين من الجهة[2]، فتم تعذيبه رفقة شقيقه مُحَمَّد -تُوفي رحمه الله-، وأدخلا السجن لمدة 60 يوما.

(1) - استنادا إلى شهادة ميلاد الشيخ فإنه ولد سنة 1909؛ انظر في الملاحق.

(2) - هي عين الكلبة قديما تقع في الركن الشرقي من ولاية مسيلة يحدها شرقا دائرة بريكة وغربا وأولاد عدي لقبالة وشمالا بلدية برهوم وجنوبا بلدية المسيف.

ثم انتقل العدو الفرنسي لتعميم الاعتقال إلى كل أبناء سي الخثير، فاعتقل كل من مُحَمَّد الطيب وشقيقه عبد الحميد (أبناء الشيخ الخثير من الزوجة الثانية)، وللعلم أن عبد الحميد رحمه الله تم اعتقاله بعدما أصدرت الأوامر له بالزحف على يديه ورجليه من مقر الزاوية إلى غاية منزل (بيت) الشيخ سي مُحَمَّد لمين (صاحب الكرمة) حوالي 1000متر.

وبعد التعذيب الذي طاله في مختلف أنحاء جسده تم نقله إلى مركز بريكة حيث اعتقل هناك؛ ومن غير المستبعد أن المركز المعني هو مركز العطعوطة -الذي كان والدي رحمه الله أحد المعتقلين به، والذي دام اعتقاله حوالي 09 أشهر- أما صنوف التعذيب التي طالت سي عبد الحميد، وُضعت عليه خشبتين (من نوع المادري) وتم تمرير فوقهما نقالة مملوءة بالرمل، وبعد إطلاق سراحه من التعذيب بهذا المركز تُرك لحاله، فوجده المواطن بلعمري سليمان وكان لسانه منتفخ خارج فمه حيث أسعفه بطريقته الخاصة بعد أن سقاه بالماء.

ونظرا لشدة وطأة الجيش الفرنسي بالناحية تراجع دور الزاوية بشكل كبير نظرا لعملية الخوف والمداهمة التي كانت تطالها بين الحين والآخر، ولنشاط المجاهدين بها، فغادرها التلاميذ والمُدرسين، نحو أماكن أكثر أمنا وإيمانا، بمعنى توقفت عن تعليم القرآن الكريم والتدريس بصفة عامة، وتحولت إلى شبه مركز تموين واستعلام ومرور لجيش التحرير، في أوقات غير عادية وسريعة جدا.

أما بعد الاستقلال فقد نهضت الزاوية بدورها من جديد لكن ليس بنفس الوتيرة التي كانت عليها من قبل، حيث اكتفت بتعليم القرآن الكريم، وبإقامة المناسبات الدينية والاحتفال بشهر رمضان، وأداء صلاة التراويح، والقيام بحل بعض الخصومات والمشاكل العائلية على مستوى محيطها الجغرافي، أو بعد الاستقلال توقفت الزاوية عن العطاء وهي تحتاج اليوم إلى من يعيد لها الإعتبار، في الوقت الذي استمر فيه ولاء سكان القرية للزاوية وللشيخ التوهامي رحمه الله.

توفي سي الخثير رحمه الله يوم 31 مارس 1969، بعدما ترك ذرية طيبة هم على النحو التالي:أبناء الزوجة الأولى أنجب معها 04 ذكور هم مُحَمَّد، الهاشمي، عبد الله، عبد العزيز، و02 بنات. أبناء الزوجة الثانية أنجب معها 02 ذكور: عبد الحميد ومُحَمَّد الطيب، و03 بنات، وهؤلاء منهم من قضى نحبه كسي عبد العزيز، ومُحَمَّد الطيب وعبد الحميد، ومنهم من ينتظر.

وفي ختام هذه المقابلة لا يسعنا سوى أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أخي ديدوش نجل سي الهاشمي الذي كان له الفضل الكبير في ترتيب هذه المقابلة، وإلى والده سي الهاشمي الذي استقبلنا وشرح لنا صدره بما فتح الله عليه من معلومات تاريخية حول هذه الزاوية التي نتمنى من الله العلي القدير أن يقوم أحفاد

وأبناء الشيخ التوهامي بإعادة الاعتبار لها ودفعها من جديد نحو الإشعاع الثقافي والحضاري الذي كانت تتميز به، خصوصا ما تعلق بتراث الشيخ التوهامي المخطوط، ومكتبته الثرية التي كان ينهل منها تلاميذ الزاوية.

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره يمكن الوقوف على المعطيات التالية:

- زاوية الشيخ التوهامي هي إحدى فروع زوايا الطريقة الرحمانية التي انتشرت في الجزائر بعد ثورة المقراني سنة 1871، والتخريب الذي طال الزاوية الأم في منطقةالقبائل.

قدرة الشيخ التوهامي وفي ظل ظروف استعمارية قاسية على تأسيس زاوية في منطقة جغرافية عرف كيف يختارها بدقة وبحكمة، بعد استقرار عائلته في المنطقة في وقت سابق.

- الدور الثقافي والاجتماعي والإصلاحي الذي قام به الشيخ التوهامي في منطقة الحضنة الشرقية، الذي عم نفعه وانتشرت بركته من أولاد عدي غربا إلى جبل بوطالب والدار البيضاء شرقا، ومن عين الكلبة جنوبا -عين الخضراء حاليا- المتاخمة لشط الحضنة جنوبا إلى غاية الرصفة وصالح باي التابعة حاليا لولاية سطيف شمالا.

- دور الشيخ التوهامي ونجله سي الخثير في الحركة الوطنية والثورة التحريرية، والحركة الإصلاحية، خصوصا ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وخلاصة القول فإن هذه تبقى مجرد محاولة تاريخية، نراها من وجهة نظرنا المتواضعة بأنها الأولى من نوعها التي تتحدث عن زاوية الشيخ التوهامي، وعليه فإننا ندعو من جهتنا جمهور الباحثين عموما وأبناء المنطقة خصوصا بإماطة اللثام عن هذه الحاضرة الثقافية، والتطرق إلى قضايا وجوانب لم يحالفنا الحظ في الوقوف عليها، ليس من باب العجز، ولكن ظروفنا البحثية بالجامعة وارتباطاتنا العائلية لم تحالفنا في التطرق مثلا إلى موقفها من الاستعمار الفرنسي بالمنطقة، وموقفها مثلا من ثورة الأرواس 1916 التي امتدت إلى غاية عرش أولاد سحنون ومقرة؟،